دراسة ديوان الإمام (عليه السلام)

عُرف الإمام (عليه السلام) بفصاحته، واشتهرت أقواله وحكمه ورسائله التي جمعها الشريف الرضي، وقد أكد الجاحظ في كتابيه البيان والتبيين وفضائل بني هاشم أن الإمام علي أشعر الصحابة وأفصحهم وأخطبهم، وأكتبهم، كما أكد ذلك البلاذري في أنساب الأشراف وروي له شعر كثير، وقد جمع هذا الشعر جماعة فجعلوه ديوانا، ذكر منهم السيد محسن الأمين في كتابه أعيان الشيعة ثلاثة: (الأول) أبو أحمد عبد العزيز بن يحيى الجلودي المتوفي بعده ٣٣٠هـ و(الثاني) علي بن أحمد النيسابوري الفنجكردي القريب عصره من عصر السيد الرضي، و(الثالث) القطب الكيدري المتوفي ٥٧٦هـ،جمعه مرتين: مرة اقتصر على الآداب والحكم وسماه الحديقة الأنيقة ومرة سماه أنوار العقول من أشعار وصي الرسول[٢٣]

قسم ديوان الإمام (عليه السلام) قسمين: قسم للشعر الذي صدّر بعبارة قال الإمام، أو قال علي (عليه السلام) أو قال أمير المؤمنين، والقسم الثاني: ما نسب للإمام من شعر لاعتبارات سياسية ودينية.

وليس غريبا أن يختلط الشعر الصحيح بالمنسوب، نظراً لاعتماده على الرواية الشفوية، بالإضافة إلى المعاناة التي عاشها الإمام والظلم الذي أحاط به، فجاء بعض الرواة لينصفوه عن طريق الشعر، كما أن مرور فترة طويلة حتى أمكن جمع الديوان، نظرا لخلاف أئمة آل البيت (رضي الله عنهم) مع الأمويين، قد يكون أحد الأسباب التي أدت إلى امتزاج الشعر الصحيح بالمنسوب.

بناء على ذلك رأينا بعض الباحثين ينفي وجود شعر للإمام، متعللين أن النبي (ص) لما هجي وقومه، في بداية الدعوة، وطلب إليه أن يأذن لعلي كي يهجو أولئك القوم دفاعا عن قومه، قال (ص) ليس عنده ذلك وانتدب حسان بن ثابت للرد على شعراء قريش.

إن قول الرسول (ص) ليس عنده ذلك لا يعني نفياً لشاعرية الإمام، لكن الرسول يؤكد أن الإمام ليس لديه عدة الهجاء، كأخبار القبائل ومثالبها وأيامها، إذ كان في مطلع شبابه، في حين كان حسان بن ثابت طويل الباع في هذا المجال، بالإضافة إلى ذلك فإن إتقان الهجاء كان وثيق الصلة بالقدرة على إحكام الفرية، والإمكان في الباطل والإقذاع في القول، وعلي (عليه السلام) ما كان سهمه ليفوز في هذه الحلبة، كما يقول د. فاروق عمر الطباع[٢٤] لأنه وإن كان لاذعا في نقده، فإنه شريف في خصومته بشهادة أعدائه أنفسهم.

هنا نتساءل: هل يطلب القوم الهجاء من إنسان، لم يعرف عنه قول الشعر؟ ثم إن عدم إتقان الشاعر لأحد فنون الشعر، التي نعتقد أنها أبعد ما تكون عن روح الشعر، لا ينفيه من مملكة الشعر.

وقد أكّد عبد العزيز سيّد الأهل في مقدمة ديوان (الإمام علي عليه السلام) أن شاعرية الإمام موروثة عن أبيه، الذي اشتهر له شعر كثير، وقد علّق على قول ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد إن أبا بكر وعمر وعليا كانوا شعراء، وعلي أشعرهم... قائلاً: بأنه لم يجاوز الحق، بما عرف من خصائص لغة علي وثروته الطاغية في الألفاظ والأساليب، وبما عرف من التناسب بين الشعر وما عرف من خصائص الكلام.

ثم وجدناه يبيّن لِمَ لا نجد له قصائد طويلة، فقد كانت حياة أمير المؤمنين في كل أطوار حياته مليئة بالأحداث الجسام، فلم يكن له خلو بال الشاعر الذي ينطلق ليهيم وراء الصيغة، واصطياد المعاني واختيار القوافي، وإنما كان يصوغ الشعر كبقية الكلمات التي يصوغها مرتجلة سديدة حاسمة في الشؤون التي يقوم بها في ميادين الجهاد وإرسال الحجة والقول في الدين والحكمة والأخلاق...لذلك من اليسير أن يدرك القارئ من الشعر الذي يقرؤه للإمام علي قوة صلته به أو بعده عنه من اللفظ والأسلوب والغرض ومن السمو اللغوي الذي كان يعيش الإمام في سمائه[٢٥].

وقد حاولنا إعادة النظر قسمي شعر الإمام (الأصيل والمنسوب) فنقلنا بعض الأشعار التي لمسنا فيها ضعفاً إلى القسم المنسوب إليه، كما نقلنا قصيدة من الشعر المنسوب إلى القسم الأصيل لما لاحظناه فيها من متانة وجمال فني.

شعر الإمام صورة لسيرته الذاتية :

وقد حاولنا في دراستنا لشعره أن نعتمد القسم الأصيل منه، دون المنسوب، خاصة أننا لاحظنا أن معظم هذا الشعر قدّم لنا سيرة ذاتية للإمام، فكان أشبه بوثيقة تاريخية لحياته، إذ جسّد لنا مشاعره في لحظات حاسمة من حياته، كما يجسّد لنا مشاهد كانت مثار فخر له، كنصرة دين الله، ومساندة النبي (ص) في حربه مع الشرك، ويبدو لنا أن والده (شيخ آل هاشم وحاميها) قد شجعه على ذلك، فخاطبه قائلاً:

أتأمرني بالصبر في نصر أحمد ... فوالله ما قلت الذي قلت جازعا

ولكنني أحببت أن ترى نصرتي ... لتعلم أني لم أزل لك طائعا

وسعيي لوجه الله في نصر أحمد ... نبي الهدى المحمود طفلا ويافعا

رغم أن والده لم يسلم إلا أنه كان من أكبر المدافعين عن الرسول، لهذا وجدناه يشجع ابنه على الاستمرار في نصرة ابن عمه، ويبدو لنا أن الشاب فخور بهذه النصرة التي هي ولاء لدين الله ولابن عمه الذي رعاه صغيرا، وبرّا بأبيه الذي شجّعه على الدفاع عن رابطة القرابة التي تربطه بالرسول.

ولعل الحادثة الأهم في حياة الإمام التي أثبت حبه للدين وللرسول، وأرّخت لشجاعته وهو شاب صغير، هي حادثة نومه في فراش الرسول (ص) في مكة، كي يسهّل هربه من الكفار إلى المدينة، فيقول مفتخرا بفدائه:

وقيت بنفسي خير من وطأ الحصى ... ومن طاف بالبيت وبالحجر

محمد لما خاف أن يمكروا به ... فوقاه ربي ذو الجلال من المكر

وبتّ أراعيهم متى ينشروننني ... وقد وطّنت نفسي على القتل والأسر

يبدو لنا الإمام هنا يفخر بكونه أول فدائي في الإسلام، فقد افتدى خير إنسان على سطح الأرض النبي (ص)، ونلمح هنا روح الإسلام متغلغلة في أعماق الإمام، فهو في هذا المقطع ورغم أنه في مجال فخر إلا أنه لا ينسب نجاح الرسول في الهرب من الكفار إلى نفسه بسبب تضحيته بحياته، وإنما إلى العناية إلهية، ومما يمنح جمالية خاصة لهذا المقطع أننا نعايش في البيت الأخير أعماق الإمام حين نام في فراش الرسول (ص) فهو يراقب الأعداء متسائلا بينه وبين نفسه متى يكشفون أمري؟ مهيئا نفسه لأقسى النتائج: الموت أو الأسر.

ليس غريباً على من يحمل صفات الفداء فلا يخاف الموت أن يفتخر بشجاعته، نجده يقول في مقطع شعري آخر:

أنا علي بن عبد المطلب ... مهذّب ذو سطوة وذو غضب

غُذِّيت في الحرب وعصيان النوب ... من بيت عزّ ليس فيه منشعب

وفي يميني صارم يجلو الكُرب ... من يلقني يلقَ المنايا والعطب

صحيح أن الإمام (عليه السلام) يفخر بشجاعته، هنا، لكنه يقدّم عليها، وعلى غيرها من الصفات السمو الأخلاقي (مهذّب) وهي صفة لازمته حياته كلها ولن تكتمل لديه مما لم يرافقها هيبة وأنفة، فقد تربى في بيت لا يعرف الضيم، تغذّى فيه على

الشجاعة والطعان كما تغذّى على مواجهة المصائب، والتمرد عليها، فوعى منذ الصغر أن الشجاعة تحقق آماله فيقضي على أعدائه ويشفي أحزانه، لهذا يخبر الأعداء بأنه الموت الذي يلاقيهم في ساحة الوغى.

يبدو لنا النفس الإسلامي واضحا في فن الرثاء، فحين توفيت السيدة خديجة ووالده في عام واحد (سمي عام الأحزان) نجده يرثيهما في مقطع واحد قائلاً:

أعينـيّ جـودا بـارك اللـه فيكمـا ... علـى هـالكَين لا يـرى لـهما مثـلا

علـى سـيد البطحـاء وابـن رئيسـها ... وسـيدة النسـوان أول مـن صلـى

مهذبـة قـد طيّـب اللـه خِيَمـها ... مباركـة واللـه سـاق لـها فضـلا

لقـد نصـرا فـي اللـه ديـن محمـد ... على من بغى في الديـن قـد رعيـا إلاّ

يبدو أن للسيدة خديجة زوجة الرسول (ص) مكانة عظيمة في نفس الإمام (عليه السلام) اقتربت من مكانة الأم، لذلك رثاها مع والده، فقد امتلكا صفات لا مثيل لها بين الناس، إذ كان أبوه سيد قومه وابن سيدها، كما كانت السيدة خديجة سيدة نساء العالمين، ثم يمدحها مدحا لم يعرفه العرب من قبل، فهي أول من آمن بدين الله وصلى، فباركها الله وجعل الخير وطيب الرائحة مسكنا لها، ثم رأيناه يمدحها ووالده بنصرة الإسلام، ومحاربة الكفار، وقد رعيا في ذلك قرابتهما من الرسول (ص)

وقد وصف السيدة خديجة بتلك الصفة الأثيرة لديه (المهذبة) التي رأيناه يصف بها نفسه في المقطع السابق، لكنه أضاف إليها صفات إسلامية أخرى صارت مبعث فخر للإنسان الجديد في ظل الإسلام، وبذلك كان الرثاء لديه على عادة العرب مدحا للميت، لكنه أتى بصفات جديدة لم تُعرف من قبل، تمتّ إلى الدين الجديد.

وفي قصيدة أخرى اهتم بأن يجمع رثاء الميت بمدح الحي، فرثى أباه ومدح الرسول (ص) وقومه:

أرقـت لنـوح آخـر الليـل غـرّدا ... لشـيخي ينعـى والرئيـس المسـودا

أبا طـالب مـأوى الصعـاليك ذا النـدى ... وذا حلـم لا خُلفـا ولـم يـك قعـددا

فأمسـت قريـش يفرحـون لفقـده ... ولسـت أرى حيـا لشـيء مخلّـدا

يرجـون تكذيـب النبـي وقتلـه ... وأن يفـتروا بـهتاً عليـه ومجحـدا

فإمـــا تبيدونـــا وإمـــا نبيدكـــم وإمـا تـروا فسـلم العشـيرة أرشـدا
وإلا فـــإن الحـــي دون محمـــد بنـــو هاشـــم خـــير البريـــة محتـــدا
وإن لـــه فيكـــم مـــن اللـــه نـــاصرا وليـــس نبـــي صـــاحب اللـــه أوحـــدا
نبـــي أتـــى مـــن كـــل وحـــي بخطبـــة فســـمّاه ربـــي فـــي الكتـــاب محمـــدا
أغـــرّ كضـــوء البـــدر صـــورة وجهـــه جـــلا الغيـــم عنـــه ضـــوؤه فتوقـــدا
أمـين علـى مـا اسـتودع اللـه قلبـه وإن قـال قـولا كـان فيـه مسـدّدا

نعايش في هذه القصيدة حزن الإمام (عليه السلام) على أبيه، ونجد رثاءه له قد أصبح نوعا من المدح (يمدحه بقيم عربية أصيلة: سيادة قومه، إغاثته للفقير، كرمه، عقله وسعة صدره وشجاعته) كما يوّثق لنا مشاعر الكفار من قريش، إذ عبّرت عن فرحها بموت حامي النبي (ص) الذي كان يردّ الأذى عنه، وبات الكفار يظنون بوفاة أبي طالب أنهم قادرون على قتل النبي والقضاء على دين الله، لذلك يذكرهم بحقيقة أزلية: لن يخلد أي إنسان على هذه الأرض.

ثم يستخدم أسلوب الالتفات، فينتقل من صيغة الغائب إلى صيغة المخاطب، ليكون وقع خطابه أقوى فيهددهم إن استمروا في عدوانهم بأنهم سيلقون من المؤمنين قتالا شديدا لن يعبأ فيه المؤمنون بموتهم أو موت أعدائهم، لكنه لا يغفل أثناء التهديد لغة العقل والحكمة فيذكرهم بأن السلم والصلح أفضل، وكي لا يتبادر لأذهانهم أن هذا النصح عن ضعف، سرعان ما يعود إلى لهجة التهديد، ليبيّن لهم أن المؤمنين وخاصة أهله من بني هاشم قادرون على حماية النبي ، فهم خير الناس نسبا، كما يذكر الأعداء بأن الله أرسل نبيه، ولن يتخلى عنه حتى ينصره.

لم يكتفِ بتهديد قريش، بل يمدح النبي فيصفه بالفصاحة، كما يصفه بالجمال الروحي، فيشبه النورانية التي تنبعث من وجهه بضوء القمر وقد اخترق حجب الظلام فازداد نوره إشعاعا وجمالا فبدّد حجب الظلام، كما يمدحه بصفة الأمانة التي قرنتها به قريش في الجاهلية حتى دعته بـــ (الأمين) لذلك فهو يؤدي الرسالة التي ائتمنه الله عليها، وقد ذكر سمة لازمت النبي (ص) وهي الحكمة في كل أقواله.

وقد وجدنا في ديوانه ذكرًا لحادثة ميّزه الرسول (ص) بها عن سائر أصحابه، فكانت مبعث فخر له (عليه السلام) فقد آخاه الرسول بنفسه مرتين، في الأولى: حين آخى بين المهاجرين، وفي الثانية: حين آخى بين المهاجرين والأنصار، ويبدو أن الرسول (ص) بدأ بالمؤاخاة بين الجميع، وتركه للأخير، مما أقلق الإمام فسأله: لماذا؟ فقال (ص) إنما أخذتك لنفسي، أنت أخي وأنا أخوك في الدنيا والآخرة فبكى (عليه السلام) وقال:

أقيك بنفسي أيها المصطفى الذي ... هدانا به الرحمن من غمة الجهل

وأفديك حوبائي وما قدر مهجتي ... لمن أنتمي فيه إلى الفرع والأصل

ومن ضمّني مذ كنت طفلا ويافعا ... وأنعشني بالعلّ منه وبالنهل

ومن جدّه جدي ومن عمه أبي ... ومن نجله نجلي وبنته أهلي

ومن حين آخى بين من كان حاضرا ... هنالك آخاني وبيّن مَن فضلي

لك الفضل إني ما حييت لشاكر ... لإتمام ما أوليت يا خاتم الرسل

نلمس لغة الاعتزاز والامتنان، لما نال من حظوة لدى الرسول (ص) فبيّن بالقول، كما بيّن بالفعل، حبه له واستعداده لبذل نفسه فداء له، وقد برزت لديه لغة المؤمن المعتز بإيمانه، مدركا فضل الرسول عليه وعلى أمته، إذ أنقذهم جميعا من ظلمة الجهل، التي دعاها (غمة) ولا يخفى هنا اتساع دلالات هذه الكلمة لتشمل ظلمة النفس والعقل والروح معا، لذلك يعلن عن استعداده لفداء الرسول بنفسه وبروحه، لأنه يشاركه في النسب (الفرع) كما يشاركه في الأصل (الإيمان) ثم نجده يعدّد أفضال النبي عليه: ربّاه طفلا صغيرا، وتعهده بالرعاية والعلم حين كبر، فأنعش روحه بفيض علمه، زوّجه من ابنته بعد أن رفض كل من تقدّم لها من الصحابة، فأصبح أولاده أولاد النبي، كما كان أجداده أجداد النبي، فهو يلتقي معه في الأصول والفروع، ثم نجده يذكر بكل فخر مؤاخاة الرسول له أمام المسلمين، فأظهر بذلك فضل الإمام وتميّزه، فيقرّ الإمام (عليه السلام) بالجميل الذي أسبغه عليه خاتم الرسل (ص) ويعاهده أن يكون له شاكرا ومؤازرا مدى حياته، وبذلك يوّثق لنا حادثة الإخاء وأسبابها عن طريق الشعر.

كما يوّثق لنا بالشعر قولا آخر للرسول ميّزه به عن سائر أصحابه، فقد سار (ص) إلى تبوك، واستخلف عليا (عليه السلام) على المدينة، فأرجف المنافقون به، وقالوا ما خلّفه إلا استثقالاً له، فلما سمع ذلك أسرع يلحق بالنبي، كي يفضي إليه بما سمع، فقال (ص) كذّبوا، إنما خلّفتك لما ورائي، أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبي بعدي(٢٦) فرجع ثم قال:

ألا باعد الله أهل النفاق	وأهل الأراجيف والباطل
يقولون لي قد قلاك الرسول	فخلّاك في الحالف الخاذل
وما ذاك إلا لأن النبي	جفاك وما كان بالفاعل
فسرت وسيفي على عاتقي	إلى الراحم الحاكم الفاصل
فلما رآني هفا قلبه	وقال مقال الأخ السائل
أممّن أبِن لي؟ فأنبأته	بإرجاف ذي الحسد الداغل
فقال أخي أنت من دونهم	كهرون موسى ولم يأتل

هنا نعيش تفاصيل حادثة يعتز بها الإمام، ونلمس معاناته (عليه السلام) من المنافقين الحاسدين له على مكانته في قلب النبي (ص) لذلك يفتتح القصيدة بالدعاء إلى الله تعالى أن يبعدهم عنه، لأنهم لا يتقنون سوى الأحاديث الكاذبة، التي كانت مبعث ألم له، إذ حاولوا الإيقاع بينه وبين النبي (ص) لذلك لم يجد لهم نسبا ينتسبون إليه سوى الكذب والباطل فجعلهما أهلا لهم، إذ كذّبوا على لسان الرسول (بعد أن خلّف الإمام للإشراف على أمور المسلمين في المدينة، ولم يصطحبه معه في غزوة تبوك) فقالوا له: لقد كره الرسول صحبتك لهذا تركك مع تلك الفئة التي لا يثق بها من المنافقين، مما يدلّ على هجرانه لك واستغنائه عنك، ورغم إحساس الإمام بأنهم يكذبون على لسانه (ص) لكنه أسرع يلحق به مستفزّا بكامل عدته الحربية ليشاركه القتال في غزوته، لكنه ما إن يراه حتى يحس بلهفته ، وتشع أنوار رحمته (ص) وودّه عليه فتهدأ نفس الإمام (عليه السلام) ويتأكد من كذبهم وحقدهم عليه، فانطلق يوّثق لنا ما دار بينه وبين الرسول من حوار في مشهد شعري، ركز الأضواء في بدايته على مشاعر النبي (ص) تجاهه، فقد استقبله استقبال الأخ لأخيه، وسأله لِمَ لحقت بي؟ فأخبره بكلام أولئك المنافقين الحاسدين، عندئذ أجابه مؤكدا أخوته مرة أخرى وبيّن موقعه من نفسه ، فعلاقته به شبيهة بعلاقة النبي موسى بأخيه هارون، لذلك اختاره دون الجميع وجعله نائبا له على المدينة، الأمر الذي أثار ضغينة المنافقين، لكن النبي لم يقصّر في إنصاف الإمام والردّ على المبغضين.

obeikandi.com

إن المتأمل في شعر الإمام يلاحظ أنه كان مرآة لحياته، ينقل لنا ما سمعه من الرسول (ص) فأفرحه، وما سمعه من المنافقين فأهمّه، كما نجده يوثّق لنا لحظات الحزن التي ألمت به، حين توفيت زوجته بعد وفاة أبيها (ص) بحوالي ستة أشهر، وجدناه يرثيها قائلا:

أرى علل الدنيا عليّ كثيرة وصاحبها حتى الممات عليل

لكل اجتماع من خليلين فرقة وكل الذي دون الممات قليل

وإن افتقادي واحدا بعد واحد دليل على أن لا يدوم خليل

نلمح هنا نبرة الحزن، ليس لفقد الزوجة فقط، وإنما لتوالي آلام الدنيا عليه منذ وفاة الرسول (ص) ولن ينقذه من هذا الإحساس سوى الحكمة: من يعش هذه الدنيا لابد أن يصاحبه الألم حتى آخر لحظة من حياته، فمن عادة هذه الدنيا أنها تنغص حياة الإنسان بالفراق، فتفرق بين الأحبة، لذلك تبدو أية مصيبة من مصائبها أهون على الإنسان من مصيبة الموت، ثم يستنبط حكمة أخرى من هذا الفراق: إن رحيل الأحبة واحدا إثر آخر، دليل على أن البقاء في هذه الدنيا نوع من الوهم، لأن الموت لن ينسى أحدا.

وحين استشهد الصحابي الجليل عمار بن ياسر في صفين، الذي كان يقاتل إلى جانبه، وقد حقق باستشهاده نبوءة النبي (ص) تقتلك الفئة الباغية، نجد الإمام يرثيه بقوله:

ألا أيها الموت الذي ليس تاركي أرحني فقد أفنيت كلّ خليل

أراك مضرا بالذين أحبهم كأنك تنحو نحوهم بدليل

نعيش، هنا، لحظة من لحظات حزن الإمام على فقد أحب الناس إليه، ومن الملاحظ أنه كان يعاني من وطأة المصائب عليه (الخيانة والخديعة في صفين، خروج بعض جنده عن طاعته...) لهذا بات يتمنى أن يسرع الموت إليه، كي يخلّصه من آلامه، خاصة وأنه بات يحس بأن الموت يتعمد الإضرار به، فقد اختار أحبته، كأن هناك دليلا يرشده إليهم، وقد واجه هذه الظلمة والقهر بصبر المؤمن، لهذا ليس غريبا أن نجده دائب الدعوة للصبر على مصائب الدنيا في شعره ونثره:

إذا ما عرى خطب من الدهر فاصطبر فإن الليالي بالخطوب حوامل

وكل الذي يأتي به الدهر زائل سريعا فلا تجزع لما هو زائل

بات الصبر قيمة إسلامية، وصّى بها الله تعالى في كتابه العزيز، كما وصّى بها الرسول (ص) لذلك يذكر نفسه كما يذكر المؤمنين بهذه القيمة، التي تجعله يستخلص هذه الحكمة: بأن كل إنسان معرض للمصائب، فالزمن لا يأتينا فارغ اليدين، وإنما محملا بالمصائب، كما يذكرنا بحقيقة أخرى، وهي أن البقاء لله وحده، وكل ما على هذه الأرض زائل، لذلك على الإنسان أن لا يخاف المصائب والآلام، لأنها من طبيعة الحياة التي لا تثبت على حال.

عانى في خلافته من الغدر، كما عانى قبلها من الجحود، لذلك نسمعه يقول (عليه السلام)

لنا ما تدّعون بغير حقّ إذا ميّز الصحيح من المراض

عرفتم حقنا فجحدتموه كما عرف السواد من البياض

كتاب الله شاهدنا عليكم وقاضينا الإله فنعم قاض

حاول الكثيرون انتزاع حق الإمام من الخلافة، فحرمه منها البعض، وقاتله عليها البعض الآخر، لذلك يبيّن ضعف حجتهم في حقهم في الخلافة أمام حجة الإمام، فقد كانت واضحة وضوح النهار من الليل، ففي كتاب الله ما يصدّق حجته، فقد نزلت فيه ما يؤكد أحقيته في ولاية أمور المسلمين إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون، ومن يتولَ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون (سورة المائدة، آية ٥٥ و٥٦) فقد تصدق الإمام بخاتمه وهو راكع يصلي في المسجد (راجع صحيح النسائي أو في تفسير سورة المائدة من كتاب الجمع بين الصحاح الستة) ومن المعروف أن الولي هو الأولى في التصرف في الأمور، والإمام بعد أن يذكر حجته يفوّض أمره إلى الله كي يحاكمه ويقضي بينه وبين أعدائه، وقد رأيناه في نهج البلاغة يندد بقريش قائلا فجزت قريشا عني الجوازي، فقد قطعوا رحمي، وسلبوني سلطان ابن أمي.

كثر أعداء الإمام، وانفض عنه الأصدقاء، لهذا نسمعه يشكو الزمن الذي لم يبقِ له صديقا وفيا، فيقول:

تغيّرت المودة والإخاء وقلّ الصدق وانقطع الرجاء

وأسلمني الزمان إلى صديق كثير الغدر ليس له رعاء

لذلك نجده يطلب من أصحابه أمرا يدلّ على أنه بات يفتقده لدى معظمهم:

أريـــد بـــذاك أن تهشـــوا لطلعتـــي وأن تكـــثروا الدعـــاء علـــى قـــبري

وأن تمنحونـــي فـــي المجـــالس ودّكـــم وإن كنـــت غائبـــا تحســـنوا ذكـــري

معاناته مع الكثير من أصحابه، وإحساسه بفقدان ودّهم دفعه أن يطلب منهم حسن الوداد في حياته (أن يبتهجوا لرؤيته) وفي مماته (أن يدعوا له على قبره) بل يريد منهم أن يحفظوا ودّه حاضرا وغائبا، وقد وجدنا صورة لمعاناته هذه في نهج البلاغة فقد أغار أصحاب معاوية على الأنبار، فخرج بنفسه ماشيا حتى أتى النخيلة، فأدركه الناس وقالوا: يا أمير المؤمنين نحن نكفيكهم! فقال (عليه السلام) والله ما تكفونني أنفسكم، فكيف تكفونني غيركم، إذا كانت الرعايا قبلي لتشكو حيف رعاتها، وإنني اليوم لأشكو حيف رعيتي، كأنني المقود وهم القادة...(ج٤، ص٦٢)

بات يبحث عن صديق فلا يجده، لذلك يقول:

همـــوم الرجـــال فـــي أمـــور كثـــيرة وهمّـــي مـــن الدنيـــا صديـــق مســـاعد

يكـون كـــروح بـــين جســـمين قُسّـــمت فجســـمهما جســـمان والـــروح واحـــد

لم يطلب من دنياه ما يطلبه الرجال عادة من زينة الحياة، فقد انحصر همه في طلب واحد هو أن يجد صديقا يقف إلى جانبه في الملمات، يحس به، ويقاسمه أفراحه وأحزانه، فيكونان روحا واحدة تعيش في جسدين!

الشعر ومعارك الإمام (عليه السلام)

١- معارك الإسلام في عهد الرسول(ص)

شارك الإمام في معظم معارك الرسول، وأبلى بلاء حسنا فيها، حتى اشتهرت بطولته بين المسلمين، وصار الرسول (ص) ينتدبه للمهمات الصعبة، وقد وجدنا الإمام يذكر معظم هذه المعارك التي خاضها سواء في عهد الرسول أم بعده، فهي مجال فخر له، نصر بها الإسلام ودافع عن النبي (ص)

ففي يوم بدر وجدناه (عليه السلام) يفتخر قائلاً:

نصرنا رسول الله لما تدابروا ... وثاب إليه المسلمون ذوو الحجى

ضربنا غواة الناس عنه تكرّما ... ولّما يروا قصد السبيل ولا الهدى

ولّما أتانا بالهدى كان كلنا ... على طاعة الرحمن والحق والتقى

يفتخر بجهاده في بدر، ولكن اللافت للنظر أن هذا الفخر لم يكن فخراً بنفسه فقط، بل كان فخر ا بقومه من المؤمنين أصحاب العقول الذين نصروا دين الله لما ولّى المنافقون، لهذا طغت صيغة الجماعة على لغته (نصرنا، ضربنا، أتانا...) وحين استخدم صيغة المفرد كانت من أجل الدلالة على الرسول الذي جاء هاديا للبشر جميعاً، فجاهد المؤمنون معه دفاعا عن دين الله، الذي هداهم سواء السبيل في الحياة الدنيا والآخرة، إذ بفضله عرفوا عبادة الله والخلق القويم الذي يساعدهم على مواجهة الظلم والعدوان، لذلك نجد أنفسنا أمام فخر جديد، يحمل قيما إسلامية لا علاقة لها بقيم الجاهلية.

ويوم أحد خرج طلحة العبدري صاحب لواء قريش، وهو المسمى كبش الكتيبة، وخاطب المسلمين قائلاً إنكم تزعمون أن الله يعجلنا بسيوفكم إلى النار، ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة، فهل منكم من يبارزني؟ فقال (عليه السلام)

أنا ابن ذي الحوضين عبد المطلب ... وهاشم المطعم في العام السغب

أوفي بميعادي وأحمي عن حسب

هنا نلاحظ أنه لم يتخلَ عن قيم بيئته، خاصة تلك التي لا تتنافى مع قيم الإسلام، والتي كانت مبعث فخر لعائلته، فقد كانت في الجاهلية مسؤولة عن الرفادة والسقاية، أي عن إطعام الحجيج وتأمين المياه لهم، أما جدّه هاشم فقد أطعم الناس في عام المجاعة، فهو يفخر بالكرم الذي عزّزه الإسلام، كما يفخر بالشجاعة في مواجهة الأعداء، وبذلك يحمي بسيفه الدين الذي هو امتداد للكرامة والأهل.

وبعد عودته من موقعة أحد نجده يقول مفتخراً:

أ فاطم هاك السيف غير ذميم ... فلست برعديد ولا بلئيم

أ فاطم قد أبليت في نصر أحمد ... وطاعة ربٍّ بالعباد رحيم

أميطي دماء القوم عنه فإنه ... سقى آل عبد الدار كأس حميم

أريد ثواب الله لا شيء غيره ... ورضوانه في جنّة ونعيم

Obeikandi.com

هنا يفتخر ببطولته التي اشتهر فيها، كما يفتخر بسيفه (ذي الفقار) لهذا يعطيه لزوجته ملوثا بدماء الكفار، فقد قتل الكثير من زعمائهم في عزوة أحد تقرّبا لله ونصرة نبيه، لذلك يطلب منها تنظيفه، فهو ملوث بدم الكفار خاصة من زعمائهم (آل أمية) لا نجد لدى الإمام فخراً بالذات لغاية دنيوية أي بمعزل عن قيم الإسلام، لذلك ينطلق صوت أعماقه معلنا أن الغاية من شجاعته حماية دين الله، وابتغاء ثوابه وجنته.

وقد كانت هذه القيم الإسلامية ملاذه ومبعث فخر له، يواجه بها الكفار، لذلك وجدناه يردّ على شماتة هند بنت عتبة (أم معاوية) بمقتل حمزة في أحد، قائلا:

فإن تفخر بحمزة حين ولّى ... مع الشهداء محتسبا شهيدا

فإنّا قد قتلنا يوم بدر ... أبا جهل وعتبة والوليدا

وما سيان من هو في جحيم ... يكون شرابه فيها صديدا

ومن هو في الجنان يدّر فيها ... عليه الرزق مغتبطا حميدا

يبدو لنا مقتل حمزة في أحد غيلة على يد (وحشي) غلام هند بنت عتبة أخذا بثأر أقاربها الذين قتلوا ببدر، لذلك يذكرها الإمام بهم (أبي جهل، عتبة، الوليد) ويبيّن لها الفرق الكبير بين قتلى الكفار الذين يعذّبون في النار، وشهداء المسلمين الذين ينعمون بخيرات النعيم، فيستخدم مصطلحا جديدا (الشهيد) لم تعرفه العرب من قبل، جاء به الإسلام أكسب المقاتل ضد أعداء الدين قداسة، لما يحتل مكانة رفيعة في الجنة، كما يحتل المكانة نفسها في قلوب المؤمنين، لذلك كان الفرق كبيرا بين قتلى المسلمين وقتلى الكفار.

في يوم خيبر نجده يردّ على اعتداد مرحب اليهودي بشجاعته قائلا:

أنا الذي سمّتني أمي حيدره ... ضرغام آجام وليث قسورة

على الأعادي مثل ريح صرصره

هنا يفتخر باسم أطلقته عليه أمه (حيدر) وهو اسم من أسماء الأسد، فأسبغ عليه هذا الاسم صفاته في الشجاعة والجرأة، لهذا كان يهجم على أعدائه مثل ريح عاصفة، ولا ننسى أن غزوة خيبر حدثت بعد غزوة الخندق، حيث أرسل الله على الأحزاب ريحا قوية فرّقتهم وأضعفتهم، رغم كثرة عددهم، ونصرت المسلمين عليهم رغم قلتهم، لهذا شبّه الإمام نفسه بتلك الريح التي عايشها الكفار، وكانت هزيمتهم على يديها بفضل من الله تعالى.

إذاً كثيرا ما كان يردد مقطوعات شعرية ارتجالية يفتخر فيها على أعدائه في ساحة القتال، منها تلك المقطوعة التي خاطب بها أهل خيبر في ساحة الحرب، مفتخرا بشجاعته التي عرف بها، حتى إنه لم يبارز أحدا من المشركين إلا صرعه، لهذا يبدو لنا مفتخرا بسيفه، الذي يصيب مقتلا في الأعداء، فينال رؤوسهم وأعناقهم، لهذا يخاطبهم معتدا بسيفه رمز شجاعته:

هذا لكم من الغلام الغالبي من ضرب صدق وقضاء الواجب

وفالق الهامات والمناكب أحمي به قماقم الكتائب

يصف نفسه بالفتى الفارس الذي يلقى أعداءه شاهرا سيفه، يضرب به بقلب مؤمن، يرى في الدفاع عن دين الله واجبا عليه، وهو يمعن في وصف هذا السيف الذي يصيب هدفه بدقة، أي يصيب مقتلا في أعدائه، فيحمي به العدد الكبير من كتائب المؤمنين.

٢- معارك الإمام في عهد خلافته :

لاحظنا كيف كان شعر الإمام (عليه السلام) صورة لسيرة حياته، فعايشنا تفاصيل جهاده ضد الكفار، وبذلك أرّخ شعره لبطولاته في سبيل الإسلام في عهد النبي (ص) كما أرّخ لنضاله في سبيل الحق أثناء خلافته، فأطلعنا على معاناته مع أولئك الذين ناصبوه العداء من أجل الدنيا، يقول في موقعة الجمل موضحا معاناته من أولئك الذين بايعوه ثم نقضوا بيعته، ولم يكتفوا بذلك بل أرادوا حربه:

إن يومي من الزبير ومن طلحة فيما يسوءني لطويل

ظلماني ولم يكن، علم الله، إلى الظلم لي لخلق سبيل

يبث لنا الإمام، عبر الشعر، آلامه، ويبيّن لنا ما لاقاه من عنت طلحة والزبير، الأمر الذي جلب له الهم والحزن وأقضّ مضجعه، فقد قابلا إحسانه بظلم لا يستحقه منهما، ولا من غيرهما، فهو يتبع الحق ولا يحيد عنه، وقد حاول أن يحقن دماء المسلمين، لكنهما أصرّا على قتاله، فقاتلهما حتى انتصر عليهما، لكنه لم يكن سعيدا بذلك النصر، الذي سالت فيه دماء المسلمين.

إليك أشكو عجري وبجري ومعشراً غشّوا عليّ بصري

إني قتلت مضراً بمضري شفيت نفسي وأفنيت معشري

بفضل الشعر نطلع على أعماق الإمام (عليه السلام) فهو رغم انتصاره على أعدائه في موقعة الجمل لم يكن فرحا بهذا الفوز ، لذلك يبث شكواه إلى الله تعالى، فقد تكاثرت همومه، حين تألّب عليه القوم، ودفعوه لاتخاذ قرار صعب، لم يكن مقتنعا به، وهو أن يقاتل أهل عشيرته، لذلك فإن النصر عليهم يحق الحق وينغص الفرحة.

لم يكن يعاني من طلحة والزبير فقط وإنما ناصبته العداء قريش كلها فيما يبدو لنا من قوله:

تلكم قريش تمنّاني لتقتلني	فلا وربك ما برّوا وما ظفروا
قد بايعوني ولم يوفوا ببيعتهم	وما كروني بالأعداء إذ مكروا
وناصبوني في حرب مضرّسة	ما لم يلاقِ أبو بكر ولا عمر

لقد جمعت له قريش الجيوش لتقضي عليه، حتى باتت أمنيتها محصورة في ذلك، فهم يقطّعون الأرحام بينهم وبين الإمام، لذلك لن يتمكنوا من الانتصار عليه، خاصة أنهم نقضوا بيعتهم، ولم يوفوا بعهودهم، وعاملوه معاملة الأعداء، حيث واجهوه بالمكر والقتال، فعانى منها ما لم يعانِ غيره من الخلفاء قبله.

لعل موقعة صفين أكثر المعارك التي تحدث عنها الإمام (عليه السلام) شعرا،كما وجدنا أكثر الرسائل في نهج البلاغة كانت لمنع حدوثها، وقد وجهها لمعاوية ليقنعه بالمبايعة، ولكنه رفض أن تكون المبايعة دون مقابل! وقد لاحظنا وجود تفاصيل مشتركة في شعر الإمام (عليه السلام) ورسائله، فعلى سبيل المثال حين أرسل له معاوية في إحدى رسائله قائلا: يا أبا الحسن إن لي فضائل كثيرة، وكان أبي سيدا في الجاهلية، وصرت ملكا في الإسلام...وأنا كاتب الوحي... فأجابه (عليه السلام) في (نهج البلاغة ج٣، ص٣١-٣٣) إجابة تشمل جميع أقربائه مقارنا بين بلائهم في سبيل الإسلام وبين مهاجمة آل سفيان له إنك لذهّاب في التيه، روّاغ في القصد...منا النبي، ومنكم المكذّب، ومنا أسد الله، ومنكم سيد الأحلاف، ومنا سيد أهل الجنة ومنكم صبية النار، ومنا خير نساء العالمين، ومنكم حمّالة الحطب...فإسلامنا قد سمع، وجاهليتنا لا تدفع، وكتاب الله يجمع لنا ما شذّ عنا، وهو قوله وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله وقوله تعالى إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه، وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين فنحن مرة أولى بالقرابة، وتارة أولى بالطاعة...

يلجأ الإمام إلى الحوار المنطقي مستعينا بحقائق تاريخية: أي الناس أولى بولاية أمور المسلمين من دافع عن الإسلام أم من هاجمه؟ ثم يأتيه بحجة دامغة أليس أولى الناس بخلافة النبي من زكّاهم القرآن الكريم؟ فهم أول من صدّقوا رسول الله، وأول من أطاعوه.

وقد وجدنا هذا الردّ شعرا أيضا، إذ يفتخر بقرابته للنبي (ص) ويعلن ما ميّزه به عن سواه من المسلمين:

محمد النبي أخي وصهري ... وحمزة سيد الشهداء عمي

وجعفر، الذي يضحي ويمسي ... يطير مع الملائكة، ابن أمي

وبنت محمد سكني وعرسي ... مشوب لحمها بدمي ولحمي

وسبطا أحمد ولداي منها ... فمن منكم له سهم كسهمي؟

سبقتكم إلى الإسلام طرّا ... غلاما فما بلغت أوان حلمي

أنا البطل الذي لن تنكروه ... ليوم كريهة، وليوم سلم

وأوجب لي ولايته عليكم ... رسول الله يوم غدير خمّ

تلخص هذه القصيدة لنا موقع الإمام في الإسلام، إنه لا يفتخر بقرابته من الرسول فقط، وبدفاعه وأهله عنه، وإنما بقيم إسلامية، فهو أول من آمن به، ودافع عنه في الحرب وفي السلم، وذلك حين نام في فراشه، لذلك استحق الولاية على المسلمين، خاصة أن الرسول أوصى بها للإمام في يوم الغدير.

وقد لمسنا في ديوانه تفاصيل معاناته قبل موقعة صفين وأثنائها، فعايشنا الانفعالات التي اختلجت في أعماقه والأفكار التي راودته، فحين سمع بانضمام عمرو بن العاص للأمويين، قبل بداية المعركة، استغرب هذا الأمر، وقال:

يا عجبا سمعت منكرا ... كذبا على الله يشيب الشعرا

ما كان يرضى أحمد لو خيّرا ... أن يقرنوا وصيّه بالأبترا

إني إذا ما الحرب يوما حضرا ... شمّرت ثوبي ودعوت قنبرا

قدّم لوائي لا تؤخر حذرا ... لو أن عندي يابن حرب جعفرا

أو حمزة القرم الهمام الأزهرا ... رأت قريش نجم ليل ظهرا

يبدو لنا الإمام، هنا، قد فوجئ بانضمام ابن العاص إلى معاوية، لذلك يتعجب من هول ذلك التحالف الذي يجتمع فيه الباطل إلى الكذب من أجل القضاء على الحق، لو سمع النبي (ص) بمثل هذا الخبر ما كان ليقبل أن يقرن اسم وصيّه (أحب الناس إليه لذلك أوصى له يوم الغدير: الإمام علي) مع ابن عدوه الذي افتخر عليه بكثرة الأولاد العاص بن وائل والد عمرو الذي وصفه الله تعالى في كتابه الكريم بـــ إن شانئك هو الأبتر في سورة الكوثر (والشانئ هو المبغض)

نلاحظ أن الإمام استخدم لقبا خصّه به النبي (ص) حتى بات يعرف به (الوصي)(❖) وقرنه بلقب لعدو الرسول، الذي هو عدوه أيضا خصّه به القرآن الكريم (الأبتر) فتبدو المفارقة واضحة لنا، وبذلك يذكرّنا بماضي من يقاتله (ابن العاص، ابن حرب) ويستحضر أبطال الماضي من أقربائه الذين قاتلوا قريشا، فيتمنى لو كان لديه أمثال (حمزة وجعفر) ليري أعداءه من قريش صنوف الهوان، كما لقوا في الماضي على يد الرسول(ص).

لم يكتف الإمام (عليه السلام) بهذه المقارنة، التي هي تهديد غير مباشر لمعاوية وابن العاص، إذ إن مصير أعداء الإمام الذين يريدون قتاله سيكون كمصير الكفار من قريش حين قاتلوا النبي، بل نجده يهدد أعداءه بجيشه الكبير الذي جمعه لقتالهم:

لأوردنّ العاصي ابن العاصي سبعين ألفاً عاقدي النواصي

مستحقبين حلق الدلاص قد جنَّبوا الخيل مع القلاص

آساد غيل حين لا مناص

يستخدم هنا الإمام دلالات اسم عمرو بن العاص، ليجعلها جزءا من أفعاله وصفاته، التي اتسمت بالعصيان، كما اتسمت أفعال أبيه زمن الرسول (ص) فيهدد ابن العصيان بأنه سيواجه تحالفه مع معاوية بجيش ضخم، مستعد للقتال، قد تسلّح بالدروع وبالخيول الفتية، أما جنوده فهم أشبه بالأسود القوية التي ترتع في الوديان ذات المياه، لن يفلت أعداؤها منها.

(❖)راجع قاموس تاج العروس في مادة الوصي، ص٣٩٢، الجزء (١٠) منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ د .ت. الوصي كغني : لقب علي رضي الله عنه، وكتاب المراجعات للإمام عبد الحسين شرف الدين، تحقيق حسين الراضي، دار العلوم، بيروت، ص ٢٩٦.٣٠٤

وأثناء حرب صفين، واجه عمرو بن العاص قائلاً:

قـــد علمـــت ذات القـــرون الميـــل　　　والخصـــــر والأنـــــامل الطفـــــول
أنـــي بنصـــل الســـيف خنشـــليل　　　أحمـــــي وأرمـــــي أول الرعيـــــل
بصــــــارم ليـــــس بـــــذي فلـــــول

نجد الإمام (عليه السلام) يفتخر بشجاعته التي علم بها القاصي والداني، حتى النساء في خدورهن عرفن بها، وهو يفتخر بسيفه القاطع، يواجه به الأعداء، فيكون أول من يحمي دينه، لأنه يختار دائما مقدمة الجيش، يقاتل أعدائه بسيفه البتّار الذي لا يعرف الضعف.

وقد أوصى جنده في صفين بالمثابرة على قتال الأعداء، إنه ينصحهم قائلا:

دبّـــوا دبيـــب النّمـــل لا تفوتـــوا　　　وأصبحـــــوا بحربكـــــم وبيتـــــوا
حتـــى تنـــالوا الثـــأر أو تموتـــوا　　　أو لا فـــــإنني طالمـــــا عُصيـــــت
قـــد قلتـــم لـــو جئتنـــا فجيـــت　　　ليـــس لكـــم مـــا شـــئتم وشـــيت
بـــل مـــا يريـــد المحيـــي المميـــت

يحس المرء أن الإمام يريد من جنده، أن يكونوا صورة عنه في إخلاصهم وحماسهم، فالإيمان بالحق يدفع المرء إلى الصبر والعمل دون كلل صباح مساء، حتى تحقيق النصر، والثأر من الأعداء، أو الفوز بالشهادة، وتظهر لنا، هنا، معاناته (عليه السلام) من جنده، التي لمسناها أيضا في خطبه، فهو يعرف أن بعض أصحابه سيعصون أوامره في القتال حتى الشهادة أو النصر، فقد عانى من عصيانهم قبل ذلك بسبب خوفهم من الموت، فيذكرهم بحقيقة ينساها الإنسان: أن الأعمار بيد الله، لذلك فإن عصيان جنوده لأوامره في المعركة لن ينجيهم من الموت.

وقد حدّثنا في قصيدة أخرى عن عصيانهم له أثناء المعركة وبعدها (في حادثة التحكيم) إذ حدّث الرواة أن معاوية كتب أيام صفين في سهم من عبد الله الناصح، فإني أخبركم أن معاوية يريد أن يفجّر عليكم الفرات، فيغرقكم، فخذوا حذركم، ثم رمى السهم في معسكر الإمام...فأخبرهم الإمام (عليه السلام) أنها حيلة، ليزيلهم عن مكانهم فينزل فيه، فلم يقبلوا، وارتحلوا، فجاء معاوية ونزل مكانهم، وارتحل الإمام وهو يقول:

فلـــو أنـــي أطعـــت عصبـــت قومـــي　　　إلـــى ركـــن اليمامـــة أو شـــآم
ولكنـــــي إذا أبرمـــــت أمـــــرا　　　منيـــت بخلـــف آراء الطغـــام

obeikandl.com

تبدو لنا معاناته من مخالفة جنده، خاصة أولئك الذين يدعوهم بـ الطغام أي أولئك الرعاع الذين لم يتمكّن الإيمان في قلوبهم، فنجدهم يؤثرون السلامة، ويخافون الموت، فهم يقاتلون من أجل الغنائم، لذلك لا يطيعون أوامر الإمام، الذي كان على وعي بكل خديعة يواجهه بها العدو، فلو أطاعوا أوامره لتغلب على أعدائه، ووصل بجنده إلى ملك معاوية في الشام.

رغم هذه المعاناة كاد أن ينتصر على عدوه، فها هو ذا يقول يوم صفين: لم يبقَ لأهل الشام صف إلا وانتقض وكان فيما يبدو يبحث عن رأس الفتنة ليقضي عليه (معاوية) فينهي الفتنة، لذلك يقول:

أضربهم ولا أرى معاويه الأبرج العين العظيم الحاوية

هوت به في النار أم هاويه جاوره فيها كلاب عاويه

أغوى طغاما لا هدته هاديه

يظهر لنا الإمام في وسط المعركة يقاتل أعداءه، باحثا عن رأس الفتنة معاوية الذي كان يتجنبه فيبقى بعيدا عن ساحة الوغى، لأنه لو دخلها لابد أن يلمحه نظرا لضخامة جثته، وعظم كرشه، فيجعله بضربة من سيفه في النار، فقد استمال إليه الرعاع بالكذب والدهاء، لذلك يستحق هذا المصير.

وقد ذكر الرواة أن معاوية برز في أحد أيام صفين، وكرّ بجيشه على ميسرة علي، وهو يعمل على تعبئة الصفوف، يريد أن يفاجئه، لكن الإمام انتبه واقترب من معاوية الذي أسرع بالهرب، والإمام يتبعه حتى فاته، وأصاب رجلا دونه، فعاد وهو يقول (عليه السلام):

يا لهف نفسي فاتني معاويه فوق طمر كالعقاب الضاريه

وقد رأيناه في رسائله (في نهج البلاغة) يدعو معاوية للمبارزة حقنا لدماء المسلمين وحسما للخلاف بينهما، لكن معاوية رفض دعوته، لأنه أحس أنه يعجز عن مثل هذا اللقاء.

وفي قصيدة أخرى نجده يؤكد جبن معاوية ويفتخر بشجاعته وبعلمه و وبقرابته من الرسول:

أنا عليّ فاسألوني تخبروا ثم ابرزوا إلى الوغى أو أدبروا

سيفي حسامٌ وسناني يزهر منا النبي الطاهر المطهّر

هذا لهذا! وابن هند محجر مذبذب مطّرد مؤخر

إنه رجل السلم في علمه، كما هو رجل الحرب بشجاعته، وقد لمسنا في البيت الأخير تعرّيضه بمعاوية، فينسبه إلى أمه هند التي لاكت كبد حمزة بعد استشهاده، ويبيّن جبنه، فهو يختبئ في جحره، لا يواجه في المعركة ويبقى في مؤخرة الجيش، لذلك كان مبعدا عن المكارم.

ويبدو لنا أن المعركة كانت تسير في غير صالح معاوية، فقد قتل الكثير من جنده، وقد افتخر بذلك الإمام حين ترك صفين قائلا:

وكم قد تركنا في دمشق وأهلها ... من أشمط موتور وشمطاء ثاكل

وغانية صاد الرماح حليلها ... فأضحت تعدّ اليوم بعض الأرامل

وإنّا أناس لا تصيب رماحنا ... إذا ما طعنّا القوم غير المقاتل

لهذا لجأ معاوية إلى الخدعة ودعا جنده إلى رفع المصاحف وتحكيم كتاب الله بين الفريقين، فتحققت الخدعة التي حاكها مع عمرو بن العاص، والتي حذر منها الإمام لكن جنده رفضوا تحذيره.

لا نستطيع أن ندّعي بأن جميع جند الإمام كانوا من الرعاع الذين يعصون الأوامر، فقد كان إلى جانبه صحابة رسول الله (ص) الطاعنين في السن من أمثال عمار بن ياسر، كما كانت قبيلة همدان بأسرها إلى جانبه، لذلك جمع رجالها، وقال لهم: أنتم درعي ورمحي، يا همذان، ما نصرتم إلا الله ولا أجبتم غيره، فقال سعيد بن قيس: أجبنا الله ونصرنا النبي (ص) في قبره، وقاتلنا معك من ليس مثلك، فارمِ بنا حيث أحببت، فقال (عليه السلام):

ولما رأيت الخيل تقرع بالقنا ... فوارسها حمر العيون دوامي

تيمّمت همدان الذين هم هم ... إذا ناب أمر جُنّتي وحسامي

دعوت فلبّاني من القوم عصبة ... فوارس من همدان غير لئام

يقودهم حامي الحقيقة منهم ... سعيد بن قيس والكريم محامي

لهمدان أخلاق ودين يزينهم ... ولين إذا لاقوا وحسن كلامي

فلو كنت بوابا على باب جنة ... لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

يلجأ الإمام إلى همدان في الشدائد والحروب، فيجدهم سندا كعهده بهم، لذلك يشبههم بدرعه الذي يحميه وسيفه الذي يردّ الأعداء عنه، وقد حدثنا الإمام عن سرعتهم في تلبية ندائه مبرزا شجاعتهم، وأخلاقهم الرفيعة، ولم ينسَ مدح رئيسهم الذي قال له: ارمِ بنا حيث أحببت، فيصفه بالكريم الشجاع، ويلقبه بـ حامي الحقيقة ردّا على قوله قاتلنا معك من ليس مثلك أي معاوية، فاختار صفة (حامي الحقيقة) تنصف الإمام والممدوح معا، ويلاحظ أنه لم يخصص رئيسهم بأكثر من بيت واحد، فقد مدح جميع الهمدانيين بالخلق والدين والفصاحة، لذلك يتمنى لو أنه على باب الجنة كي يدعوهم جميعا إليها، وكان لاستخدامه التناص القرآني ادخلوها بسلام في خاتمة القصيدة جمالية خاصة، من حيث الإيقاع والمعنى، وبذلك عزّز مدحه لهم بلغة القرآن، مما منحه بعدا دينيا.

لا نجد في حربه مع الخوارج الكثير من الشعر، ويبدو أن القوم حاربوه يوم النهروان وهم يجهلون شخصه، لذلك نجد بعض جندهم كان يسأل عن الإمام ليقاتله وجها لوجه، حتى إن الإمام يجيبه شعرا:

يا أيها المبتغي عليا ... إني أراك جاهلا شقيا

قد كنت عن كفاحي غنيا ... هلمّ فابرز هاهنا إليّا

ويقول (عليه السلام) لرجل آخر من الخوارج:

يا أيها المبتغي أبا الحسن ... إليك فانظر أينا يلقى الغبن

إنه مثال للقائد الذي يخوض بنفسه المعارك، يواجه جند الأعداء، ممن يطلب مبارزته دون تردد أو تكبر، مسرعا إلى تهديدهم بسوء المصير، فهم لا يجهلون شخصه فقط بل شجاعته أيضا.

obeikandi.com

الإمام وقيم الإسلام :

ولو تساءلنا ما هو السبب الذي يجعله يملك تلك الشجاعة النادرة في مواجهة أعدائه، حتى في سن الشيخوخة، لوجدنا أن الإيمان بالله، والتسليم بقضائه وقدره، فلا يخاف عندئذ المؤمن من الموت، بالإضافة إلى إيمانه بضرورة الدفاع عن الحق، مما يدفعه باتجاه العدو دون أي تردد، لذلك كان يقول في صفين:

أيّ يوميّ من الموت أفر يوم لا يقدر أم يوم قُدِّر
يوم ما قدّر لا أرهبه إذا قدّر لا ينجي الحذر

وقد يسأل المرء لِمَ عانى الإمام كل هذه الفتن، مع أن المسلمين كانوا قريبي العهد من الدعوة الإسلامية؟ فنجده (عليه السلام) يوضح لنا السبب قائلا:

ليبكِ على الإسلام من كان باكيا فقد تركت أركانه ومعالمه
لقد ذهب الإسلام إلا بقيةٌ قليل من الناس الذي هو لازمه

ترك المسلمون دينهم، فلم يعملوا به، حتى بات المرء يفتش عن مظاهر الإسلام في حياة الناس فلا يجد! فلم يبقَ من المتمسكين به إلا القليل من المؤمنين، لهذا لن نستغرب معاناة الإمام، أثناء خلافته، من شيوع الفتن في ذلك العصر، فقد لهث معظم الناس وراء الدنيا، ونسوا دينهم! أو لم يتمكن الإسلام في قلوبهم بعد!

رغم ذلك سعى الإمام إلى إصلاح الناس فكان يجاهد بشعره ونثره من أجل الدعوة إلى الإسلام، وحين لا ينفع القول نجده يلجأ إلى السيف، وقد بدا الهدف الديني والتربوي واضحا في لغته الأدبية، التي كانت بسيطة، قريبة المتناول، تزخر بالحكمة، فحين نتأمل شعره ـ وكذلك نثره ـ نجده يسعى إلى غرس قيم الدين الجديد في النفوس، مؤكدا تقوى الله في أقواله، كما أكّدها في أفعاله، فاستطاع إمام المتقين أن يجسّد لنا صورة المؤمن في أنصع صورها، لذلك عايشنا بفضله الإيمان وقد صار قوة للمؤمن، ينأى به عن اليأس والحزن:

وكم لله من لطف خفيّ يدقّ خفاه عن فهم الذكي
وكم يسرٍ أتى من بعد عسر ففرَّج كربة القلب الشّجي
إذا ضاقت بك الأحوال يوماً فثق بالواحد الفرد العلي
توسل بالنبي فكل خطب يهون إذا تُوُسّل بالنبي
ولا تجزع إذا ما ناب خطب فكم لله من لطف خفي

obeikandl.com

إنه يأخذ بيد الإنسان الذي تعترضه المصائب، كي تتسع آفاقه، ويخرج من أزمته، فيبيّن له بأن لله حكمة في ابتلائه قد تخفى عليه، كما يؤكد له أن الأحزان لا تدوم، خاصة حين يعتمد الإنسان على الله، متوسلا شفاعة النبي، فإن الله لن يخيب وسيلته، وقد كرر دعوته الإنسان إلى التسلح بالصبر في مواجهة المصائب لأهمية الصبر في الحياة التي تخبئ الكثير من المصائب والآلام، لكنه يعود ثانية ليذكر في نهاية القصيدة كما ذكّر في مطلعها بأن ثمة حكمة إلهية وراء المصائب فكم لله من لطف خفي لترسخ في الأذهان هذه الحكمة، التي لن يصل إليها إلا من آمن بالله تعالى وسلك إليه طريق المعرفة، لذلك بيّن أهمية التربية والعلم، موصيا الآباء بحسن تأديب أبنائهم، قائلا:

حرّض بنيك على الآداب في الصغر ... كيما تقرّ بهم عيناك في الكبر

وإنما مثل الآداب تجمعها ... في عنفوان الصبا كالنقش في الحجر

هي الكنوز التي تنمو ذخائرها ... ولا يخاف عليها حادث الغير

إن الأديب إذا زلت به قدم ... يهوي إلى فرش الديباج والسرر

الناس اثنان ذو علم ومستمع ... واع وسائرهم كاللغو والعكر

نلمس هنا إحدى الحقائق التي أكدها اليوم علم النفس ، وهي أن تكوين الإنسان يتم في طفولته، فما يزرعه الإنسان في هذه السن يلقه في سن النضج، لأن ما يتعلمه الطفل في الصغر يلازمه مدى الحياة ملازمة النقش للحجر، لهذا يرى الكنز الحقيقي الذي يملكه المرء هو العلم لا المال، فهو الوحيد الذي يحمي الإنسان من مصائب الدهر، بل يبيّن لنا أن من يستحق لقب إنسان هو العالم والمتعلم، أما الباقي فهم الذين يكدرون صفو الحياة بجهلهم، لذلك شبههم بلغو الكلام الذي لا طائل وراءه.

يلاحظ المرء إلحاح الإمام (عليه السلام) على العلم في ديوانه وفي نهج البلاغة إذ يقول لا ميراث كالأدب...ولا شرف كالعلم.... ومن هنا كان الناس لديه ثلاثة عالم رباني ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعاع، أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق. (نهج البلاغة ج٤ ص٣٥-٣٦)

يلح على قيمة إسلامية أخرى نادى بها الإسلام إلى جانب العلم وهي المساواة إن أكرمكم عند الله أتقاكم. (سورة الحجرات، آية ١٣) لهذا وجدناه يقول (عليه السلام):

النـــاس مـــن وجهـــة الآبـــاء أكفـــاء   أبوهــــــــــم آدم والأم حـــــــــواء

فـإن يكـن لـهم مـن أصلـهم شـرف   يفـــاخرون بـــه فـــالطين والمـــاء

مـا الفضـل إلا لأهــل العلـم إنـــهم   علـــى الـــهدى لمـــن اســـتهدى أدلاء

ففـــز بـــالعلم ولا تطلـــب بـــه بـــدلا   فالنـاس موتـــى وأهـــل العلـــم أحيـــاء

يذكر الإمام الناس بأنهم متساوون، ماداموا ينتمون إلى أصل واحد (آدم وحواء) ثم يبيّن حقيقة الإنسان ومكوناته واحدة (الطين والماء) لذلك فإن التميّز بين الناس يكون بالعلم، فأهله هم الذين يسلكون الطريق الصحيح، ويرشدون غيرهم إليه.

وقد لاحظنا أن الإمام، فيما سبق، ألحق صفات سلبية بأولئك الجهّال (اللغو، العكر، الهمج، أتباع كل كاذب أو ناعق...) لكنه هنا ينفي عنهم صفة الحياة ويجعلهم أمواتا، فيبلغ بذلك ذروة التحريض على العلم، كي ينتمي أبناء الإسلام إلى الحياة فلا يعدّون من الأموات.

يعزّز الإمام قيم حياة جديدة ترى قيمة الإنسان بعمله وعلمه وأخلاقه، فهذا هو النسب الذي يفاخر به المؤمن، لذلك يقول:

كـن ابـن مـن شـئت واكتسـب أدبـا   يغنيـــك محمـــوده عـــن النســـب

إن الفتـــى مـــن يقـــول هاأنـــا ذا   ليـس الفتـى مـن يقـول كـان أبـي

إذاً يعلي في شعره ونثره قيم التقوى والعلم والعمل على النسب، وهي القيمة التي احتفى به الجاهليون، فيقول في نهج البلاغة من أبطأ به عمله، لم يسرع به نسبه وهو في ذلك يؤسس لقيم إسلامية، عمل الرسول (ص) قبله على ترسيخها في العقول والقلوب، لتتجلى في السلوك، فنجده يقول:

لعمـــرك مـــا الإنســـان إلا بدينـــه   فـلا تترك التقوى اتكالا علـى النسـب

فقـد رفـع الإسـلام سـلمان فـارس   وقد وضع الشّرك الشـريف أبـا لـهب

بات النسب الحقيقي الذي يفخر به الإنسان هو الدين، لذلك يقارن بين مكانة سلمان الفارسي في الإسلام ومكانة أبي لهب الذي ينتمي إلى أرفع نسب من قريش (بني هاشم: فهو عم النبي) لكن لم يشفع له نسبه، ولم يحمه من الضعة، حتى بيّن الله تعالى خسارته (في سورة اللهب) حين قال تبّت يدا أبي لهب وتبّ

أصبحت تقوى الله هي النسب الذي يفتخر المرء بالانتماء إليه، وبذلك بات الدين والنسب لدى الإمام شيئا واحدا يدافع عنه، قائلا:

اليـــوم أبلـــو حســـبي ودينـــي   بصــــارم تحملــــه يمينـــي

عنـــد اللقـــاء أحمـــي بـــه عرينـــي

إنه يحمي بسيفه ملاذه الروحي أي الدين، الذي شكّل انتماء المؤمن الوحيد ، وبذلك يؤسس الإمام لتلك القيم التي تعلي شأن الإنسان بغض النظر عن نسبه! إذ تجعل القيمة العليا لدينه وعلمه وعمله.

اللقاء بين نهج البلاغة والديوان :

وجدنا أحيانا لدى الإمام (عليه السلام) ظاهرة المزج بين الشعر والنثر في الديوان، فمثلا يقول من لانت كلمته وجبت محبته ثم أنشد:

كيـف أصبحـت كيـف أمسـيت ممـا   يُنبِـتُ الـودّ فـي الفـؤاد الكريـم

وقد مرّ معنا سابقا ملامح التقى فيها نثر الإمام (في نهج البلاغة) بشعره، لذا نعتقد من الضروري أن نلقي بعض الضوء على هذا اللقاء، الذي لحظناه في جوانب من سيرته الذاتية ، ففي نهج البلاغة نصحه أحد المنجمين لما أراد المسير لقتال الخوارج يا أمير المؤمنين إن سرتَ في هذا الوقت خشيتُ أن لا تظفر بمرادك من طريق علم النجوم، فقال (عليه السلام) أتزعم أنك تهدي إلى الساعة التي من سار فيها صرف عنه السوء، وتخوّف من الساعة التي من سار فيها حاق به الضرّ، ثم أقبل على الناس فقال:

أيها الناس إياكم وتعلم النجوم إلا ما يهتدى به في برّ أو بحر، فإنها تدعو إلى الكهانة، والمنجم كالكاهن، والكاهن كالساحر، والساحر كالكافر، والكافر في النار، سيروا على اسم الله. فنصر ه الله تعالى على الخوارج، وفضح كذب المنجمين، وقد وجدنا تفاصيل هذه الحادثة موّثقة شعرا، إذ يفنّد قول المنجم قائلا:

خوّفنـــي منجّـــم أخـــو خَبَـــل   تراجـع المريـخ فـي بيـت الحمـل

فقلـت: دعنـي مـن أكـاذيب الحيـل   المشـتري عنـدي سـواء وزحـل

أدفـع عـن نفسـي أفـانين الـدول   بخـالقي ورازقـي عـزّ وجـل

obeikandi.com

لم يكتفِ الإمام بالدعوة إلى العلم في نثره وشعره، بل نجده يدعو إلى ما قد يكون أهم من ذلك وهو التفكير العلمي، أي نقل العلم من حيّز ه النظري إلى حيّزه العملي، فيصبح جزءا من حياة الإنسان، وهذا ما نفتقده اليوم، إذ ما نزال نعاني من سيطرة السحر والتنجيم على حياتنا، مما يعني إلغاء للعقل والركون إلى التخلف، من هنا أهمية هذا الفعل الذي قام به (عليه السلام) ووثّقه لنا بالقول، إذ لم يكتفِ بتكذيب قول المنجم، بل عمل بما ينقض نصيحته وخاض معركة تُنبئ فيها بخسارته، فجسد لنا الدين على حقيقته الذي يعتمد العقل والعمل ويرفض السحر والكسل، وكل ما يلغي العقل.

كذلك استطعنا أن نعايش في شعره ونثره زهده، خاصة بعد أن احتل أرفع منصب في الدولة، فصار خليفة للمسلمين بيده أموالهم، التي استطاعت أن تحرف كثيرا من الحكام عن جادة الدين، وأغرقتهم في ملذات الدنيا، لذلك نجده يقول حين دخل بيت المال ونظر ما فيه من فضة وذهب:

ابيضّي واصفرّي وغرّي غيري إني من الله بكل خير

وفي (نهج البلاغة ج٤ ص١٦-١٧) لاحظنا أنه يردد المعنى ذاته يا دنيا إليك عني، أبي تعرّضت أم إلي تشوّقت؟ لا حان حينك، هيهات غُري غيري، لا حاجة لي فيك، قد طلقتك ثلاثا لا رجعة فيها، فعيشك قصير، وخطرك يسير، وأملك حقير، آه من قلة الزاد وطول الطريق، وبعد السفر، وعظيم المورد.

أقبلت الدنيا عليه بكامل زينتها متشوقة، كامرأة عاشقة، فأغلق بابه في وجهها قائلا لها: ابعدي عني، واستميلي إليك غيري!

وبذلك أعلن هجرانه لها بطلاق نهائي، فقد كشف حقيقتها، فهي لا أمان لها، وكل ما فيها تافه وإن بدا عظيما، خاصة بعد أن وضع نصب عينيه مشهد يوم الحساب العظيم، والغريب أنه، رغم زهده، يشكو من عدم استعداده لهذا اليوم! وصعوبة الطريق إليه!! وقد لاحظنا أن عبارة (غرّي غيري) قد تكررت في الشعر والنثر، مما يدلّ على أن ثمة روحا واحدة تكمن وراء إبداع النثر والشعر، ونفسا زاهدة، تجد غناها في القناعة، لذلك نجد أمير المؤمنين يعلي من شأن غنى النفس، فهذا هو الغنى الحقيقي في حين نجد الفقر في الطمع، لذلك يقول:

وغنى النفوس هو الكفاف وإن أبت فجميع ما في الأرض لا يكفيها

كما التقت بعض الحكم الشعرية للإمام بحكمه النثرية، مما يعني أنه صاغها شعرا في الديوان ونثرا في نهج البلاغة، أو لعل بعضها نسبت إلى شعره استنادا إلى حكمه النثرية.

إن المتأمل في هذه الحكم بنوعيها يلاحظ أنها مستمدة من عالمه الداخلي وثقافته الإسلامية وخبرته، فكانت صورة لحياته الروحية، وصوت إيمانه، سعى من خلالها إلى نقل خبرته إلى الناس، كي يرتقي بهم، كما ارتقى بنفسه، وهو مدرك لأهمية الحكم في حياة الإنسان، إذ تغني النفس والعقل، وتدفع الملل عن الإنسان، وتجدد الحياة، لذلك نجده يقول (في نهج البلاغة) إن هذه القلوب تملّ كما تملّ الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكم. التي تفيد الإنسان في حياته وفي آخرته، إذ تقدم له الخبرة الحياتية والمعرفة العقلية مختزلة بأقل قدر من الكلمات وأجمل الألفاظ، فتمتع العقل والقلب معا.

نقل لنا الإمام معاناته من الفقر، الذي جعله غربة في نهج البلاغة حين قال الفقر في الوطن غربة بل رآه معادلا للموت الفقر هو الموت الأكبر (نهج البلاغة ج٤،ص٤١)

غالبت كل شديدة فغلبتها والفقر غالبني فأصبح غالبي

إن أُبده يفضح وإن لم أبده يقتل فقُبّح وجهه من صاحب

ثم بيّن كيف يستطيع المرء تجاوز الفقر بالقناعة التي هي غنى للنفس، وربما كانت الدعوة إلى القناعة، وعدم كنز الأموال، من أكثر الحكم التي ترددت في شعر الإمام ونثره، فهو يحاول بكل وسيلة تشجيع الناس على انتهاج طريق القناعة، فيحدثهم عن تجربته معها كما حدثهم عن تجربته مع الفقر، فيقول (عليه السلام):

أفادتني القناعة كلّ عزّ وهل عزّ أعز من القناعة

فصيّرها لنفسك رأس مال وصيّر بعدها التقوى بضاعة

تُحرز ربحا وتَغنى عن بخيل فتنعم بالجنان بصبر ساعة

ينقل لنا عبر صيغة المتكلم التي قد يرى البعض أنها أبعد ما تكون عن جو الحكمة، التي يظن أنها تحتاج إلى صيغة تفيد التعميم، لكن يلاحظ هنا أن صوت الأنا لا يغرق بمتاهات ذاتية، وإنما يقدم حكمة حياتية بلهجة حميمة، مما يجعلها أكثر تأثيرا في المتلقي، باعتقادنا، إذ يعايش تجربته الحياتية ويتبيّن دور القناعة فيها، إذ بفضلها عاش حياة كريمة، رغم فقره ، لذلك يؤكد لنا أنها أفضل من أي مال يجمعه الإنسان، سنجد المعنى

نفسه في نهج البلاغة قد صاغه في حكمة تقول القناعة مال لا ينفد وإن كنا قد لاحظنا أن الحكمة الشعرية أكثر تفصيلا، إذ يقدم فيها صفة ملازمة للقناعة (التقوى) ويبيّن لنا الحياة الهانئة التي يعيشها كل من سار في طريقهما ليس في دنياه فقط بل في آخرته أيضا.

ركزت حكمه على ضرورة ارتباط العلم بالعمل، كما رأينا سابقا، وقد انتبه إلى أهمية إتقان العمل، بل حصر قيمة الإنسان بما يتقن من عمل، فنجده في (نهج البلاغة ج٤ ص١٨) يقول قيمة كل امرئ ما يحسنه من عمل وقد رأينا هذا المعنى في شعره أيضا:

وقدر كل امرئ ما كان يحسنه وللرجال على الأفعال أسماء

يلفت نظر الإنسان إلى أن إتقان العمل يرفع من قدره أمام الناس، لأن كل إنسان يعرف بما قدّمه للآخرين من عمل نافع، لذلك لن يضيع العمل المتقن مادامت هناك ذاكرة تنسب كل فعل لصاحبه.

وهو يبيّن الآفات التي تعيق عمل الإنسان، والتي ما نزال نعاني منها اليوم، وهي كثرة الكلام، لهذا يدعونا إلى العمل وقلة الكلام، لأن كثرة الكلام مضيعة للوقت، ومجال لكثرة الخطأ، ودليل على الجهل والغباء، لهذا نجده في (نهج البلاغة ج٤، ص١٥) يقول إذا تمّ العقل نقص الكلام وفي هذا المعنى نجده في الديوان يقول:

إن القليل من الكلام بأهله حسن وإن كثيره ممقوت

ما زلّ ذو صمت وما من مكثر إلا يزلّ وما يعاب صموت

ينتبه الإمام إلى أن ما يبني الإنسان من الداخل الإيمان والعمل الصالح واحترام الوقت، لذلك يرى أن الثرثرة دليل على قلة العقل، تقود الإنسان إلى الخطأ.

كما ينتبه إلى ما يؤسس لعلاقات اجتماعية متوازنة، لا تقوم على المبالغة الانفعالية، لذلك يدعو في حكمه إلى التوازن الانفعالي أثناء التعامل مع الآخرين، سواء أكانوا أعداء أم أصدقاء، فيقول في (نهج البلاغة ج٤، ص٦٤) أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما، وابغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما. وفي هذا المعنى يقول شعرا أيضا:

أحبب إذا أحببت حبا مقاربا فإنك لا تدري متى أنت نازع

وأبغض إذا ما أبغضت بغضا مقاربا فإنك لا تدري متى أنت راجع

وقد رأيناه سابقا يطلب التوسط حتى في محبته، بل يهدد بهلاك كل من أفرط بحبه، كهلاك من أفرط في بغضه سيهلك فيّ صنفان: محب مفرط...ومبغض مفرط. فالاعتدال الانفعالي هو الذي ينقذ الإنسان في علاقاته الاجتماعية، ويجعله يرى الحقيقة بشكل أفضل، فتتضح رؤيته إلى أخيه الإنسان فلا يرى محاسنه دون مساوئه أو نقيض ذلك.

وقد رأى الإمام في الصبر محكا للإيمان، وبما أن الإنسان يعيش حياة منغصة بالآلام، فلابد له من الصبر على المحن، وقد رأيناه يحدثنا صعوبة الصبر، ومعاناة الإنسان في ذلك:

ولربما صبر الفتى عند الأذى وفؤاده من حرّه يتأوّه

إذاً يلاحظ أن الحكمة لدى الإمام تأتي متنوعة الصيغة، فتارة عبر لغة عامة، وتارة عبر لغة حميمة نسمع فيها صوت الأعماق (لغة الأنا) مما يمنح الحكمة حرارة وتأثيرا، ويبعد لغتها عن التعليمية الفجة، وقد لمسنا ذلك في شعره أكثر من نثره، ففي مجال الصبر، الذي عايشه الإمام كثيرا، نجده ينقل لنا تجربته، عبر لغة أقرب إلى الحوار الداخلي:

أقول لنفسي وهي ضيقة وقد أناخ عليها الدهر بالعجب

صبراً على شدة الأيام إن لها عقبى وما الصبر إلا عند ذي الحسب

سيفتح الله عن قرب بنافعة فيها لمثلك راحات من التعب

لخص لنا هذه الحكمة في (نهج البلاغة ج٤، ص٤٠) حين قال لا يعدم الصبور الظفر وإن طال به الزمان. وقد استخدم اللغة العامة المكثفة التي تلائم الحكمة، في حين نقل الشعر تجربة حية عاناها الإمام، واستخلص منها الحكمة، لهذا قدّمها بلغة شديدة الألفة هي حديث النفس، وبمثل هذه اللغة يعايش المتلقي الحياة الصعبة والمصائب التي تلاحقت على الإمام، وكيف واجهها، فتعرفنا على تفاصيل هذه التجربة عبر حوار داخلي نشأ بينه وبين نفسه، فازدادت الحكمة نصوعا في الوجدان، وساعدت المتلقي على إفساح مجال للأمل رغم المعاناة، لأن الصبر والأمل من صفات المؤمن (ذي الحسب) وقد رأينا سابقا كيف جعل الدين والنسب شيئا واحدا، وبذلك يتخذ الإنسان الإمام قدوة له، فمهما يعاني من آلام ومصائب لا يمكن أن تقارن بما عاناه الإمام الذي صبر موقنا بالفرج.

جماليات الحكمة:

قدّم لنا الحكمة النثرية بكلمات قليلة يسهل حفظها، وبالتالي يسهل تداولها بين الناس، في حين بدت الحكمة الشعرية أكثر عناية بالتفاصيل، وإن كنا قد لاحظنا أنه غالبا ما يقدّم الحكمة -بنوعيها- عبر صور جميلة، تهزّ الوجدان بما تحويه من دلالات فكرية تزيدها تألقاً تلك الدلالات الجمالية، مما يضاعف أثرها لدى المتلقي، إذ تخاطب العقل والوجدان معا، لنتأمل هذه الحكمة التي يعرّفنا عبرها معنى الأخوة الحقيقية:

إن أخاك الحق من كان معك ومن يضرّ نفسه لينفعك

ومن إذا ريب الزمان صدّعك شتّت فيك شمله ليجمعك

يقدم الإمام صورة للأخوة الحقة، معتمدا على لغة التناقضات (ينفعك، يضر نفسه، صدّعك الزمان، يجمعك) لكن اللافت للنظر تلك الدلالة الرائعة للأخوة التي قدّمها عبر صورة تبرز الإخلاص، حيث يضحي الأخ براحته وبما يلمّ شتات نفسه، من أجل أن يساند أخاه، وبهذا تكون الأخوة تمزيقا للذات والأنانية من أجل سعادة الآخرين، وقد اختار من أجل تشكيل جماليات هذه الصورة أفعالا مضعّفة تدلّ على الحركة القاسية على النفس (صدّعك، شتّت فيك شمله ليجمعك) تكمن جمالياتها في مخالفتها أفق التوقع لدى المتلقي، فقد اعتدنا على استخدام فعل التشتّت في التعامل بأذى مع الآخرين لا مع الذات، فانزاحت الدلالة من العام إلى الخاص، في هذه الصورة، وانتقل دلالة الفعل من السلبية إلى الإيجابية، فالمرء يضرّ نفسه ويشتتها من أجل الآخرين.

إذاً ينصح الإنسان حين تصيبه مصائب الزمان (تصدّعه وتمزّقه) أن يلجأ إلى الأخ المخلص، كما ينصحه أن يلجأ إلى الصبر، لأن القلق والاضطراب سيضاعفان مصيبته، فقدّم لنا هذا المعنى عبر هذه الصورة:

الدهر يخنق أحيانا قلادته عليك لا تضطرب فيه ولا تثب

حتى يفرّجها في حال مدتها فقد يزيد اختناقا كلّ مضطرب

نعايش هنا مصائب الدهر وقد تحولت إلى قلادة تخنق الإنسان، لذا ينصحه بعدم الخوف والاضطراب، لأنه بذلك يزداد ألما وتوترا، فتكبر مصيبته بدل أن تخفّ، ولعل جمال هذه الصورة في استخدام لفظة قلادة ذات الدلالات الإيجابية، وهي تنزاح عن هذه الدلالة وتصبح سلبية حين يضطرب الإنسان ويخاف من المصيبة بدل أن يصبر عليها، فتصبح أداة خانقة عوضا عن أ تكون زينة للنفس وقوة.

ذكر لنا الإمام (عليه السلام) الكثير من الحكم في ويلات الدهر، نظرا لمعاناته لها بشكل يومي، وقد صوّر لنا حالته معها، كمن يهرب من الهم إليه، فالأيام لم تخفف عنه المصائب، وإنما كانت تزيدها عليه:

عجبـــا للزمـــان فـــي حالتيـــه وبـــلاء ذهبـــت منـــه إليـــه

ربّ يـــوم بكيـــت منـــه فلمـــا صـــرت فـــي غـــيره بكيـــت عليـــه

شكلت جمالية هذه الحكمة أحرف الجر (منه، إليه، عليه) بما توحيه مع متعلقاتها من دلالات متناقضة (ذهبت منه إليه، بكيت منه عليه) فتبرز تفاقم الآلام على الإمام والمصائب مع مرور الزمن، فلذلك يبدأ بالتعجب من ملاحقة المصائب له.

لم يخلصه من هذه المصائب سوى الإيمان والحكمة، التي تجعله يرى حقيقة الدنيا، وأنها دار زوال لا دار بقاء، فقد أدرك أنها أشبه بالوهم، لذلك يقول:

ومن يصحب الدنيا يكن مثل قابض على المـاء خانتـه فـروج الأصـابع

لن يستطيع امرؤ أن يركن للدنيا ويشعر فيها بالأمان، إذ إن حال من يتمسك بها كحال من يمسك بالماء بين يديه، لابد أن يهرب من بين أصابعه، لذلك من العبث التشبث بها، أو الركون إليها!

سيؤكد هذه الدلالة في حكم أخرى وهم الدنيا، مستخدما تشبيهات أخرى، تدل على سرعة زوالها، فيقول:

إنمـــا الدنيـــا كظـــل زائـــل أو كضيـــف بـــات ليـــلاً فـــارتحل

أو كطيـــف قـــد رآه نـــائم أو كـــبرق لاح فـــي أفـــق الأمـــل

يختار لتعريف الدنيا أسماء ذات دلالات وهمية (الظل، الطيف، البرق) أو تدلّ على الإقامة المؤقتة (الضيف) أو غير الواعية (النائم) كما عرّفها عبر أفعال تدلّ على الحركة السريعة والتي لا توحي الأمان والاستقرار (ارتحل، لاح...) لذلك يحذر الإنسان من أن يأمن جانبها أو يركن إليها.

وقد اعتمدت هذه الحكم التنوع في الإيقاع والأسلوب، فتارة تستخدم الحوار الداخلي فتبدو الحكمة حديثا للذات، عبر ضمير المتكلم:

أقــول لعينـــي احبســـي اللحظـــات ولا تنظـــري يـــا عـــين بالســـرقات

فكم نظـرة قـادت إلـى القلـب شـهوة فـأصبح منـها فـي القلـب حسـرات

إن هذه اللغة الحميمة التي يحدّث بها نفسه تصلح أن تكون لغة أي إنسان يغالب هواه، ويردع عينيه عن النظر فيما لا يحلّ لها، لهذا جعل تلك نظرة العين في إثمها كإثم سرقة اليد، وهو لا يكتفي في خطابه بلغة الغيبيات، وإنما يلجأ إلى لغة المعاناة الدنيوية، فيبيّن عواقب من لا يغضّ بصره في الدنيا قبل الآخرة، إذ يسلط الضوء على معاناة الإنسان الداخلية، عبر لغة الأنا، التي هي لغة الاعتراف والشكوى، فينقل معاناة الإنسان بشكل حميمي، حين تستيقظ شهوات نفسه، فيعيش منغصّا، لأنه يعجز عن تلبية جميع شهواتها، خاصة أن الحياة لا تنتهي مغرياتها!

بالإضافة إلى اللغة الحميمية نجده يستخدم اللغة التعميمية التي يخاطب بها الإنسان بشكل عام، فتتخذ لغة الأخ الذي ينصح أخاه بمودة ودون أي استعلاء، فيقول:

إذا هبّـــت ريـــاحك فاغتنمـــها فعقبـــى كـــل خافقـــة ســـكون

ولا تغفـــل عـــن الإحســـان فيـــها فمـــا تـــدري الســـكون متـــى يكـــون

يقدّم لنا، هنا، فرص الحياة التي تلمح في حياة الإنسان في صورة رياح تهبّ بسرعة ثم تهدأ، فإن أحسن المرء استغلالها قاد مركب حياته إلى الأمان، وإلا فسيتحطم هذا المركب، لذلك يدعو الإنسان إلى أن ينتهز الفرص بالعمل فلا يضيع وقته بالكسل أو الخوف، وبما أن الدنيا سريعة الزوال لذلك ينصح الإنسان أن ينتهز فرص الخير، لأنه لا يدري في أي وقت يموت، فيعجز عن الفعل.

دعا الإمام الإنسان إلى تأمل ذاته، مؤكدا في ذلك دعوة القرآن الكريم إلى استخدام العقل والتأمل في معجزات الله في الكون، والتي في مقدمتها التأمل في خلق الإنسان، هذا المخلوق الصغير، الذي يضمّ في أعماقه أسرار الكون الكبير، لذلك يدعوه إلى عدم استصغار شأنه، فهو يحتوي قدرات لا حدود لها، كما يفصح عن معجزات لا تعدّ:

دواؤك فيـــك ومـــا تشـــعر وداؤك منـــك ومـــا تبصـــر

وتحســـب أنـــك جِـــرم صغـــير وفيـــك انطـــوى العـــالم الأكـــبر

يخاطب كل إنسان ويحمله مسؤولية إنقاذ روحه، إذ يملك في أعماقه الدواء الذي يشفيه، والداء الذي يسقمه، لهذا يدعوه للتأمل في نفسه، فهذا الجسد الصغير الذي هو الإنسان يحوي أسرار الكون الكبير ومعجزاته، ولكي تتضح هذه الفكرة اعتمد لغة الطباق (الدواء، الداء/ جرم صغير، العالم الأكبر) التي تحرض المخيلة للمقارنة بين الإنسان والكون، كما تحرض الفكر للتأمل في معجزات الله التي تكمن في الإنسان، الذي يراه معادلا لأسرار الكون.

يختار ألفاظا متقاربة الإيقاع تعتمد الجناس (دواؤك، داؤك) أو التوازن في عدد الحروف (منك، فيك / تشعر، تبصر) والاشتراك في بعض الحروف، مما يؤدي إلى إيقاع محبب يسهّل حفظ الحكمة الشعرية.

تفنى اللذاذة ممّن نال صفوتها ... من الحرام ويبقى الإثم والعار

تبقى عواقب في مغبّتها ... لا خير في لذة من بعدها النار

يقدّم لنا حكمة إنسان مؤمن يحذر من ارتكاب المعاصي، مستخدما لغة المنطق ولغة الخطاب الديني معا، فيبيّن للإنسان أن اللذة التي يجنيها من ارتكابه الإثم، سرعان ما تزول، فيبقى وباله ليفضح المرء ويكلله بالعار في دنياه، ويحمل وزره إلى آخرته، ثم يدعو الإنسان إلى التأمل في نتائج تصرفاته، وبما أن نتيجة أية لذة تصاحبها معصية خسران الدنيا والآخرة لذلك ينصح بالابتعاد عما يغضب الله تعالى، وعما يفسد الحياة والكرامة، فيحقق خلاصه في الدنيا والآخرة.

كوّنت هذه اللغة الدينية شخصية الإمام وشكّلت وجدانه، في نثره وشعره، فكانت أهم جانب في حياته، لذلك ابتعد خطابه عن تلك اللغة المستعلية، وشاعت فيه لغة شفافة بسيطة.

وهكذا قدّم لنا الإمام عبر أدبه حكمة الإسلام، وروعة القيم الجديدة التي تعلي شأن العقل، وتقف إلى جانب الإنسان ليواجه غصص الحياة، فتقويه بالإيمان، وترفع قيمته بالعلم والعمل بعيدا عن النسب، وتساوي بين البشر بغض النظر عن معتقدهم، لهذا وجد الإمام (عليه السلام) في لغة الأدب خير معين له في تأسيس قيم حياة جديدة مازلنا أحوج ما نكون لها اليوم.

الحواشي:

١- الإمام الحافظ بن أبي عبد الله النيسابوري، المستدرك على الصحيحين وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي، بإشراف د. يوسف عبد الرحمن المرعشلي، ج٣، دار المعرفة، بيروت، دون تاريخ، ص١٠٧

٢- راجع مقدمة كتاب ١٠٠ وصية للإمام علي عليه السلام أحمد علي الدخيل، دار المرتضى، بيروت، ط١، ٢٠٠١

٣- من أجل المؤاخاة بين الإمام (عليه السلام) وبين الرسول (ص) راجع (صحيح الترمذي (ج٥) ص٣٠، حديث رقم ٣٨٠٤، كفاية الطالب للكنجي الشافعي مناقب علي بن أبي طالب لابن المغازلي الشافعي، المناقب للخوارزمي الحنفي، تاريخ الخلفاء للسيوطي ص١٧، السيرة النبوية لابن هشام، ج٢، ص١٠٨...)

٤- المستدرك على الصحيحين ج٣، ص١٢٥، أخرجه بهذا المعنى مع قرب الألفاظ أحمد بن حنبل من حديث عبد الله بن عمر، ص٢٦، ج٢ من مسنده

٥- الإمام أحمد بن حنبل المسند ج١، ط٢، دار الفكر، دمشق، ١٩٩١، ص١٨٢

٦- الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) نهج البلاغة (ما اختاره الشريف الرضي من كلام الإمام علي بن أبي طالب (ع) شرح الأستاذ محمد عبده (ج١) دار المعرفة بيروت، دون تاريخ، ص٤٠

٧- نهج البلاغة (ج١) ص١٢٤

٨- المصدر السابق (ج٢) ص١٨٤-١٨٥

٩- المصدر السابق نفسه، ص٤٨

١٠- نفسه (ج٤) ص١٤

١١- نفسه (ج٣) ص١١٢

١٢- نفسه، ص٧-٨

١٣- نفسه، ص١٠

١٤- نبيه العاقل تاريخ عصر الرسول والخلفاء الراشدين مديرية الكتب الجامعية، دمشق، ط١، ١٩٧٥(١٩٧٦، ص٣١٤

١٥- نهج البلاغة (ج٢) ص١٨٥

١٦- المصدر السابق، ص١٨٠

١٧- المصدر السابق نفسه، (ج٣) ص١٠٧-١٠٨

١٨- نفسه، ص٨٤

١٩- نفسه، (ج٤) ص٩٨

٢٠- نفسه، ج(٢) ص١٨٦-١٨٧

٢١- نفسه، ص٨

٢٢- نفسه، (ج١) ص٨٤

٢٣- السيد محسن الأمين أعيان الشيعة (ج١) دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٨٦، ص٢٤٦

٢٤- ديوان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب شرحه وضبط نصوصه وقدّم له د. عمر فاروق الطباع، شركة الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، دون تاريخ، ص٩ بتصرف.

٢٥- ديوان من الشعر المنسوب إلى الإمام الوصي علي بن أبي طالب عليه السلام، جمعه وشرحه عبد العزيز سيّد الأهل، دار صادر، بيوت، دون تاريخ، المقدمة ص٥-٦ بتصرف.

أخرج هذا الحديث صاحب الجمع بين الصحيحين (في فضائل علي وغزوة تبوك) وهو موجود غزوة تبوك من صحيح البخاري، وفي باب فضائل علي من صحيح مسلم، وفي باب فضائل أصحاب النبي من سنن ابن ماجه، وفي مناقب علي من مستدرك الحاكم.